العرب
الجمعة 2020/10/16
السنة 43 العدد 11852

الإنترنت ليست فضاء للتعدد والجدل والحرية

ثقافة التبادل الرائجة على المواقع الاجتماعية تشرّع للعنف والرقابة الذاتية

ساد الظنّ في بداية ظهور الإنترنت والمواقع الاجتماعية أنها ستكون بمثابة "أغورا"، ساحة مفتوحة للجميع، وستسمح بتنقل أفضل للمعارف والمعلومات، وتجعل الجدل أكثر ثراء والديمقراطية أكثر حيويّة، ولكنها انقلبت إلى فضاء يهيمن فيه التلاعب بالعقول والأخبار الزائفة والاستغلال التجاري.

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

لا مراء أن الإنترنت ولّدت خيبات بقدر ما حملت من آمال، فهي كشبكة تواصل مفتوحة ولا مركزية خلقت طفرة في المساهمين، الساعين لإثراء الجدل حول كل ما يخص الإنسان في ماضيه وحاضره ومستقبله، وهي إذ منحت الإمكانيات نفسها لكل مستخدميها، كشفت بجلاء عن أنماط من الرؤى تعيش جنبا إلى جنب في المجتمع الواحد أحيانا.

غير أن هذه الحرية لها وجهان: فمن ناحية أمكن لكل فرد، مهما كان تكوينه وسنّه وموقعه، أن يعبّر عن رأيه ويدافع عن قيمه ويطرح شبكة قراءته الخاصّة لقضايا مجتمعه. ومن ناحية أخرى، تكشّفت هذه الحرية عن ذاتانية عنيفة وشلّلية وعدوانية، فقد تحول الاختلاف في أنماط الرؤى إلى تباين في أشكال العقلانية إلى حدّ صار من الصعب معه الاتفاق على البدَهيّات والحقائق التي لم تعد تحتاج من زمن إلى بيّنة، ذلك أن الجماعات التي تستخدم الإنترنت لا تملك الإبستيمولوجيات نفسها.

> ما نشاركه مع أصدقائنا ومتابعينا يساهم في بناء هويّة رقمية، ويؤكّد انتماءنا إلى مجموعة أفكار وقيم وممارسات

صحيح أن تلك الاختلافات وُجدت قبل الإنترنت، ولكنها كانت زمن الميديا الجماهيرية محصورة في المجال الخاصّ، وغالبا ما تُمحى من المجال العامّ حسب مبدأ الأغلبية، حين كانت الكلمة الفصل لأهل الذكر ممن تحظى آراؤهم بأكثر قدر ممكن من التأييد، ولو ضمنيًا، فتُتّخذ كمعيار تقاس به آراء الأقلية. أمّا في هذا الفضاء المتعدّد الذي خلقته الإنترنت، فقد ظهرت أنماط رؤى أخرى انتشرت بحرية، فكانت سببا في تفجّر نزاعات قيمية في وضح النّهار.

سلطة جديدة

لقد أوجدت الإنترنت وفرة في الخطاب العام كان لها ثلاث نتائج رئيسية: أولا غربلة المعلومات التي كانت في العادة موكولة للصحافيين وباتت الآن تحت تصرّف محركات البحث والمواقع الاجتماعية؛ ثانيا حلول السُّمعة محل السلطة؛ ثالثا، سقوط الجدار الفاصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة. فالمنصات عبر الإنترنت تعزز الانغلاق الأيديولوجي وتضخم عنف المبادلات، والتعديل فيها يتمّ بسرية تامة، مع بروز خطرين هما خصخصة الرقابة، وإمكانية وقوع معمار المراقبة وهياكلها تحت تصرف الأنظمة الاستبدادية.

في كتاب "زوال السحر عن الإنترنت"، يتوقف الفرنسي رومان بادوار عند التطورات الكبرى التي ميّزت الجدل على الشبكة، وأثرها في تحويل الكيفية التي يبنى بها المشترَك في نظام ديمقراطي.

من أهمّ تلك التطورات إعادة تشكيل ما يسميه رجال الإعلام "مراقبة البوّابة"، تلك السلطة التي يملكها الصحافيون في الوسائط الموجهة للجمهور العريض، والمقصود بها غربلة المعلومة، وتخير المواضيع التي تستحق أن تنشر على الملأ، والشخصيات الجديرة بأن تُدعى إلى المنابر، والكتب التي يمكن عرضها ومحاورة مؤلفيها. أي أنهم يقرّرون أي الفاعلين في المجتمع المدني يملك شرعية خوض الجدل العام.

عمل الانتخاب هذا صار اليوم غير ذي قيمة أو يكاد بسبب نموذج التواصل الذي أقرّته الإنترنت، فالحراسة لم تزل موجودة، ولكنّها باتت بأيدي فاعلين آخرين هم محركات البحث والشبكات الاجتماعية، التي ورثت سلطة سياسية هامّة بحصولها على نقاط مراقبة، ممثلة في مزوّدات حواسيب تمرّ عبرها المعلومة، وتستخدمها أيضا كأدوات مراقبة تملك القدرة على مصادرة ما تراه غير مناسب لشروط استخدامها.

من التحولات الكبرى أيضا إعادة تشكيل كلمة السلطة، حيث سوّت الإنترنت بين سائر مستخدميها وصار من الممكن تقنيًا لأي شخص أن يعبّر بحرية، عملا بمبدأ المساواة بين كل فئات المجتمع، وهكذا وجد الأساتذة والتلاميذ، الكتاب والقراء، الأطباء والمرضى، الخبراء والمبتدئون أنفسهم في مستوى واحد.

وبما أنّ المواقع الاجتماعية أصبحت الفضاء الأساس للجدل على الشبكة، طرأ تحول آخر على مفهوم السلطة في النقاش، من منطق وثاقة الصلة بين الحجة والموضوع، وقوة الإقناع، إلى منطق قوة الانتشار والتأثير. ففي فيسبوك مثلا وتويتر ويوتيوب، يحظى المستخدمون بقوة ضاربة غير متكافئة، حيث الغلبة لمن له على صفحته عدد أكبر من الأصدقاء والمتابعين، يمثلون أبواقا تردّد حججه ومواقفه، ورافعة هامّة ليس لإسماع صوته فحسب، وإنما أيضا لإعلائه على كلّ صوت معارض، ولو كان هذا المعارض ينطق بالحقيقة الساطعة، المستندة إلى قوانين علمية ثابتة.

مواقع التواصل ليست فضاء للنقاش بل للتشابه

علاوة على منطق الشعبية هذا، نجد تحولا أساسيًا آخر هو كسر الحد الفاصل بين الحياة الخاصة والحياة العامة. ففي عصر الميديا الجماهيرية، كانت للأفراد علاقات شخصية يعربون داخلها عن مشاغلهم اليومية، ويتحولون إلى مواطنين مجنّدين لإبداء الرأي في المواضيع ذات المصلحة العامّة. هذا الفصل لم يعد موجودا في المواقع الاجتماعية، حيث يمكن لرأي خاص، أو شهادة، أو حالة ذاتية لا تخص إلا صاحبها، أن تتحول إلى موضوع نقاش، وربّما إلى خلاف، أي أن المواضيع المجتمعية باتت مشخصنة، مفضّلة على مقاس تجارب كل فرد ومصالحه.

تهديدات الإنترنت

من نتائج إزالة الحدود بين الخاص والعام أيضا أن مشاركة المعلومات في المواقع الاجتماعية تتخذ بعدا هوويًا، فعندما ينشر الفرد معلومة على تلك المنصّات، فهو لا يكتفي بنقلها وتمريرها بل يتّخذ منها موقفا، إما مُظهَرا بكتابة تعليق يرافقها، وإما مُضمَرا بشكل ينضوي ضمن دفق المنشورات التي تعكس محاور الاهتمام والمواضيع المفضّلة.

ما نشاركه مع أصدقائنا ومتابعينا يساهم في بناء هويّة رقمية، ويؤكّد انتماءنا إلى مجموعة أفكار وقيم وممارسات. وهذا يكتسي أهمية بالغة في إطار التنازع حول "الأخبار الزائفة"، فعندما نتناولها بالدرس والتحليل نكتشف أنّها تعكس تحدّيا للنخب السياسية والإعلامية، وتكتسي طابعا عدائيا يتلون بتغير الظرف والبيئة، فقد يكون في شكل معاداة للأجانب، أو المنظومة الحاكمة، أو حرية الضمير والمعتقد، بل إنه قد يأخذ شكل موقف سياسي انطلاقا من عناصر متخيلة، يروّجها بعضهم على أنها حقائق لا تقبل الطعن.

ورغم كلّ النقد الذي يمكن أن نوجهه للإنترنت والمواقع الاجتماعية، فلا نملك إلا أن نعترف بأنها لا تزال تخدم حرية التعبير والديمقراطية، وتساهم في فضح المسكوت عنه في شتى مجالات الحياة، إلا أنها لا تزال أيضا تمثل تهديدات حقيقية.

أول التهديدات التخلي عن الفضاء العام المشترك الذي يمكن أن تثار فيه القضايا المجتمعية الرئيسية، فالملاحظ أننا نشهد اليوم ما أسماه رومان بادوار "بلقنة" النقاش، حيث يفضل مستخدمو الإنترنت التواصل مع من يشاركهم قناعاتهم تجنبا للخصومات والمناوشات الكلامية مع الآخرين، ما يحدّ من قيمة النقاش وجدواه.

وثانيها حدّة النقاش العامّ عبر الإنترنت، فثقافة التبادل الرائجة على المواقع الاجتماعية تشرّع أشكال العنف التعبيري على نحو يولّد آليات الرقابة الذاتية، إذ غالبا ما يفضل مستخدمو الإنترنت عدم التعبير عن أفكارهم خوفا من أن يكونوا ضحايا حملات مضايقة وتهديد وترهيب.

ينتج عن ذلك إفقار للجدل وتقليص للعلاقات الاجتماعية. ويبقى التهديد الأكبر هو استخدام الإنترنت كأداة مراقبة تتجسس الشركات العملاقة بواسطتها على المنخرطين، وتجمّع بياناتهم وخصوصياتهم لتبيعها لمن يدفع، وتوجّه رغباتهم لحثّهم على مزيد من الاستهلاك.

«بريد الليل» لهدى بركات في ترجمة برتغالية

ساو باولو – ألفّت هدى بركات روايتها "بريد الليل" سنة 2017 بالعربية، وقد صدرت الرواية أخيرا في طبعة برتغالية تحت عنوان "كورّييو نوتورنو".

وتعتبر الكاتبة اللبنانية المقيمة في باريس منذ أكثر من 30 عاما من أقوى الأصوات الأدبية في الشرق الأوسط، وتكتب بركات دائما باللغة العربية، وفي رواياتها تحكي قصة أناس في حالة لجوء أو تهجير قسري من وطنهم، وذلك في شكل ست رسائل لم يتم إرسالها قط.

في رواياتها الحاصلة على الجائزة العالمية للرواية العربية لعام 2019، لم تذكر المؤلفة بلدان الهجرة أو الوجهة، لكنها توضّح أن الشخصيات عربية ونزحت إلى مكان ما في أوروبا.

تمت ترجمة الكتاب الذي يمتد على 160 صفحة من العربية إلى البرتغالية من قبل المترجمة صفاء جبران، ونشر عن دار "الطبلة" للنشر والتوزيع، وهي دار متخصصة في العناوين العربية والشرق أوسطية ومقرها في مدينة ريو دي جانيرو.

تقول لاورا دي بييترو، مديرة تحرير دار "الطبلة" إنه قد تم اختيار هذا الكتاب العام الماضي، عندما كانت تشارك في برنامج لدور نشر في الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة. وفازت هدى بركات حينها بالجائزة العالمية لأفضل رواية عربية.

وتضيف "لقد فازت الكاتبة هدى بالجائزة وكنت مهتمّة جدا باسمها. لدى هدى مؤلفات أخرى رائعة. وتعرّفتُ على الدار الناشرة للكتاب في نسخته العربية في هذا الحدث في الشارقة، وبقينا على اتصال معها، وقمنا لاحقا بشراء الحقوق لترجمة الرواية بوساطة وكالة الأدب العربي (راية)".

وتتابع دي بييترو أن هدى بركات تنجز أدبها بالكامل باللغة العربية، رغم أنها تقيم في فرنسا منذ 35 عاما، وهي ثنائية اللغة، لكن العربية هي لغتها الأدبية.

وعن قضية اللجوء، تقول إن عدم ذكر الكاتبة لأسماء بلدان الهجرة وتلك التي يقصدها المهجرون في روايتها، يدلّ على رغبتها في التأكيد على حالة التهجير نفسها ومشكلة تخفّي هؤلاء اللاجئين العرب في أوروبا بشكل عام.

ما ألهم بركات هو مشاهدة الناس يصلون بالقوارب هاربين من بلدانهم، بينما أغلبهم لا يصل. من هنا بدأت الكاتبة في الانشغال بهذه القضية، خاصة وأنها تعيش في أوروبا، فهي كذلك ترى جانبا من أولئك الذين يستقبلونهم أيضا.

لا يوجد حل سهل لهذه القضية، لكن بركات تكتب بطريقة مجردة للغاية، لا تريح القارئ بإجابات، وفي نفس الوقت تحرك مشاعره. فقد نجحت في كشف الجانب الإنساني لكل فرد، حيث يمكننا التواصل ووصف المواقف وإعطاء نظرة عامة على هذا الواقع.

تقول دي بييترو "إن بركات تمنح صوتا للأشخاص غير المرئيين، وأعتقد أنها عصرية جدا من حيث الشجاعة للتطرّق إلى هذا الموضوع دون خوف من النقد".

وتتابع "هدى لديها أسلوب خاص يجعلها ترمي بك في مكان ليس شائعا وغير مألوف. هؤلاء الناس موجودون، هذا الوضع موجود وهو يخص الملايين. إنه كتاب سهل القراءة، لكنه يحتوي على طبقات، ومع كل قراءة يثبت أنه أكثر تعقيدا".

> النسخة البرتغالية من رواية هدى بركات ستعقبها ترجمة لمؤلف آخر لها إضافة إلى ترجمات أخرى لكاتبات عربيات

وتخطط لاورا دي بييترو لنشر كتاب آخر لهدى بركات بالبرتغالية في منتصف العام المقبل، والعنوان المؤقت له باللغة البرتغالية هو "محراث المياه"، وهو عمل أتمته عام 2015. ووفقا لها، تقوم صفاء جبران بالفعل على ترجمته.

وبحلول نهاية العام، من المفترض أن تصدر دار "الطبلة" خمسة عناوين للبالغين وعنوانين للأطفال. كما يعتزم الناشر استثمار المزيد والمزيد في كتب من تأليف نساء عربيات.

وجاء على لسان مديرة التحرير، رغبة في "توفير أكبر عدد ممكن من هذه الثقافات. وبتصميم أكثر معاصرة، وكتّاب معاصرين، لجذب القراء الشباب وأحفاد العرب الذين لا يتكلمون العربية".

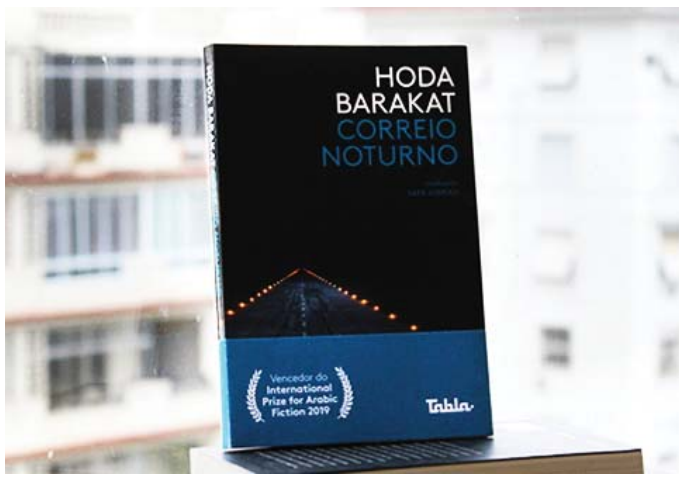

رواية عن هواجس المهاجرين

«كان ياما كان» تهدي 1500 كتاب لأطفال لبنان

الشارقة – أهدى المجلس الإماراتي لكتب اليافعين 1500 كتاب لثلاث مكتبات متضررة في العاصمة اللبنانية ضمن مبادرة "كان يا ما كان" الهادفة إلى تزويد الأطفال بكتب ذات قيمة وجودة عالية، وذلك استجابة للمبادرة الثقافية الإنسانية التي أطلقتها مؤخرا الشيخة بدور بنت سلطان القاسمي، نائب رئيس الاتحاد الدولي للناشرين، بترميم وتطوير عدد من المكتبات التي تضررت جراء انفجار مرفأ بيروت.

واستهدفت المبادرة كلا من مكتبة "الباشورة" و"الجعيتاوي" و"مونو" التي تديرها جمعية "السبيل" غير الحكومية، الناشطة في دعم المكتبات العامة في لبنان، لتكون مجانية للجميع. كما شملت المبادرة تنظيم سلسلة جلسات قرائية مفتوحة في أماكن عامة وقريبة من المكتبات المتضررة استضاف المجلس خلالها الكاتبة سمر برّاج والرسّام سنان حلّاق بحضور عدد من أطفال بيروت.

كما تضمنت المبادرة زيارات ميدانية لوفد المجلس اطلع خلالها على أوضاع المكتبات ومحيطها وجرى توقيع ملصق فني يجسد لوحة بعنوان "سوا مرجّع النبض لقلب بيروت"، من رسوم الفنان سنان حلّاق وتأليف الكاتبة سمر برّاج، التي ضمّنتها رسائل إبداعية تعكس المحبة التي يكنّها أبناء بيروت لمدينتهم.

وأشارت مروة العقروبي رئيس المجلس الإماراتي لكتب اليافعين إلى أنه في ظلّ ما حلّ بالعاصمة اللبنانية تأثرت عدد من المكتبات وفقدت العديد من الأرفف محتوياتها لهذا حرصنا على تقديم هذا الدعم المتواضع والمساهمة بإعادة الحياة من جديد لتلك المكتبات وإرجاع جزء من الكتب إلى مكانها، لنترك أثرا ولو بالقليل في إعادة الوهج الثقافي والإبداعي لمدينة لها مكانتها الثقافية والإبداعية في الوجدان الإنساني أجمع.

> الدعم سيعيد الحياة من جديد لتلك المكتبات التي تضررت من انفجار بيروت ويرجع جزءا من الكتب إلى مكانها

وكانت المبادرة التي أطلقتها الشيخة بدور بنت سلطان القاسمي قد ساهمت في ترميم مكتبة مونو وتطوير وتحديث المكتبات الثلاث التي تضررت جراء الانفجار في إطار جهودها الرامية إلى المساهمة في إصلاح الوجه الثقافي والحضاري للعاصمة اللبنانية، حيث عملت على ترميم مكتبة مونو في المبادرة وحسّنت وطورت البيئة الداخلية والخارجية لمكتبتي الباشورة والجعيتاوي من خلال تزويدها بجملة من التجهيزات اللازمة، إلى جانب تقديم الدعم المؤسسي لجمعية السبيل.